

للأفراد، فطبعت اللغة بميزة أسلوبية. ذلك أن لكل لغة خصوصيات أسلوبية تميزها عن بقية اللغات، ثم في كل لغة أنماط تعبيرية تعكس أنماطاً تفكيرية للعلاقة الحميمة بين اللغة والفكر؛ مما يولد قيماً دلالية للألفاظ متباينة من لغة إلى لغة أخرى، وكذا بنية الألفاظ وتركيبها ونحوها مختلف بين اللغات.

إن للترجمة علاقة وطيدة بالكتابة والتي تعدّ التجسيد الأمثل للنوعي والتميز والمختلف من الأنماط التفكيرية، وهي أيضاً خرق للمتواتر والمألوف، إنها لعبة يمارسها المبدع بمتعة وإمتاع وتمتع، إنها تستفيد كثيراً من مبدأ الاختلاف المؤسس لعناصرها سواء على مستوى الكلمة المفردة أم على مستوى التركيب أم على مستوى الأفكار. ولهذا اهتم بعض المفكرين بهذه النقطة الحساسة فأسسوا بما يعرف بفلسفة الاختلاف؛ ووضع جاك دريدا مؤلفه "الكتابة والاختلاف" وأسهم ميشال فوكو بمؤلفه "الكلمات والأشياء".

إن الاختلاف مظهر جمالي يجسد مبدأ الانزياح أو العدول الذي تعتمد عليه اللغة لإبداع نصوص تكشف عن المتباين والمختلف في صورة منسجمة ومتناغمة، ويتم ذلك بمراوغة اللغة بالتنقل المتناوب بين الاستعمال المعياري والاستعمال الاستعمالي (الوصفي) كلما دعت إلى ذلك الحاجة بوساطة الانحراف بدلالة الكلمة عن معناها الأصلي إلى معنى مشابه أو قريب أو مضاد. ذلك أن الخطاب يقوم على بنية المراوغة والخداع لتخطي سلطة المعيار، وإذا كان فوكو قد نقصى الاختلافات في الكلام فليكتشف "أن المنطوق هو غير ما يدور في الذهن وأن الخطاب هو نتاج العلاقة الجدلية بين الرغبة والقوة، أو بين التحرز والسلطة، فالسلطة، كونها صاحبة القدرة والقوة، هي التي تسمح بما يقال وبما يعبر عنه، وبما لا يعبر عنه، لمن يحق الإفصاح ولمن لا يحق، إلا أن الرغبة تتخفي في المجاز، فالمجاز هو الذي يكشف إذن النظام المعرفي لإحدى الحقب التاريخية" (3). ثم تأتي الترجمة لتنتقل هذه النصوص المتباينة إلى لغة ثقافتها متباينة، فالمتباين يقابله المتباين الآخر بحمولته المعرفية. يقول جاك دريدا: "عندما نقول بأن ما هو شمولي أو ما هو كلي هو غديم المعنى؛ فلأن الإدراك عاجز عن الإحاطة به وتصوره حيث الحقل المعرفي ليس سوى المساحة التي تخاض فيها الألاعيب. وفي اللعب تعوض المكونات بعضها بعضاً حتى وإن انحصر الحيز عن مجموع مغلق" (4).

إن الاختلاف نشاط فكري يعكس مستوى من مستويات التوجه الإنساني بحسب الأسس الفلسفية المكونة لمثله، وإذا كان الأمر كذلك فهل أن الاختلاف